الإمام محمّد بن علي الجواد عليه السلام في دراسات المستشرقين[1]

مرتضى مداحي

المقدمة

إن الإمام محمّد بن علي بن موسى المعروف بالإمام الجواد والإمام محمّد التقي (١٩٥-٢٢٠ق) هو الإمام التاسع عند الشيعة الإماميّة. كنيته أبو جعفر، ولقبه الجواد وابن الرضا. وقد جاء تلقيبه بالجواد لكثرة بذله وإحسانه. وقد استشهد في شرخ الشباب عن خمسة وعشرين سنة. وكانت مدّة إمامته سبع عشرة سنة، وقد تزامنت إمامته مع عصر خلافة المأمون العباسي والمعتصم العباسي. وحيث يأتي اهتمام المستشرقين بالمسائل الإسلامية من زاوية خارجية وتاريخية، ولم تقع في حياة الإمام الجواد عليه السلام حادثة مهمّة يكون للإمام الجواد دور محوري فيها، كان هذا الإمام عليه السلام من بين الأئمة الذين قلما تمّ الاهتمام بهم من قبل المستشرقين. يقول عبد الجبار ناجي: إن إسهام المستشرقين الملحوظ

---

١. ترجمة: حسن علي مطر.

في الكتابة عن الإمام علي عليه السلام، والإمام الحسن عليه السلام والإمام الحسين عليه السلام... لا يمكن موازنته عددًا بدراسة أوضاع الأئمة الآخرين[1]. وقد التفت أمير معزي إلى قلة أبحاث المستشرقين ودراساتهم في شأن بعض الائمة، وقال في ذلك: ينقسم أئمة الشيعة عليهم السلام بلحاظ حياتهم السياسية إلى أربعة أقسام، وهي: أ ـ الأئمة الذين تعاطوا مع السياسة بشكل مباشر وعلى نحو إيجابي، وهم كل من الإمام علي عليه السلام، والإمام الحسن عليه السلام، والإمام علي بن موسى الرضا عليه السلام. ب ـ الأئمة الذين لم يُنسب إليهم أيّ نشاط سياسي، وفي هذا القسم يندرج سبعة من أئمة الشيعة عليهم السلام. ج ـ القسم الذي لا يشتمل على غير الإمام الحسين عليه السلام. د ـ القسم الذي يختصّ به الإمام المهدي عجل الله تعالى فرجه الشريف[2]. ومع ذلك هناك مصادر معدودة تعرّضت للبحث والحديث بشأن الإمام الجواد عليه السلام؛ وعليه فمن الطبيعي أن لا يقع موردًا لدراسات المستشرقين إلا في الحدّ الأدنى.

وعلى كل حال فإن المصادر القليلة حول سيرة الإمام الجواد عليه السلام، عبارة عن: المصادر الخاصة بالدراسات الشيعية، ومقالات دائرة المعارف الإسلامية، ولا سيّما مدخل الإمام الجواد عليه السلام في الأطروحات الجامعية، والمقالات المنشورة في مختلف المجلات التي تعرّضت لمناسبة ما إلى جوانب من حياة الإمام الجواد عليه السلام. وقد تمّ في هذه المصادر بحث عدد من المسائل الجديرة بالنقد والنقاش، ويمكن إجمال هذه الموارد على النحو الآتي:

١. إن مسألة إمامة الإمام الجواد عليه السلام في صغره، من أهمّ الأبحاث التي وردت الإشارة إليها في أكثر هذه المصادر. إن الإمام الجواد هو أوّل إمام يصل إلى منصب

---

١. ناجي عبد الجبار، التشيع والاستشراق، المركز الأكاديمي للأبحاث، بغداد، ٢٠١١ م.

٢. أمير معزي، راهنماي رباني در تشيّع نخستين، ١٥٧.

الإمامة في صغره بعد استشهاد أبيه الإمام علي بن موسى الرضا عليه السلام، وكان هذا الأمر قد شكّل تحدّيًا بالنسبة إلى الشيعة في ذلك العصر، وكان يتعيّن على كبار الشيعة أن يعملوا على مواءمة أفكار أولئك الذين كانوا يستبعدون هذه المسألة. وقد عمد المستشرقون إلى بحث هذه المسألة وكذلك الاختلافات التي وقعت بين الشيعة في هذا الشأن أيضًا.

٢. المسألة الثانية هي مسألة علم الإمام؛ فبالنظر إلى صغر سن الإمام الجواد عليه السلام، كانت هذه المسألة مورد بحث الشيعة في ذلك العصر، وتبعًا لهم قام بعض المستشرقين ببحث هذه المسألة أيضًا. وهي مسائل من قبيل: كيف ومن أيّ طريق حصل الإمام الجواد عليه السلام على علمه؟ وهل كان علم الإمام الجواد مكتسبًا تعلمه بطرق التعليم العادية أم بالطرق الإعجازية؟ وهل كان اكتسابه للعلم من كتب آبائه أم كان علم كل واحد من الأئمة بالإلهام الإلهي؟ ومسائل من هذا القبيل التي تمّ بحثها في بعض آثار المستشرقين.

٣. إن سُمرة بشرة الإمام الجواد عليه السلام كان هي الأخرى من المسائل التي وقع البحث حولها، وبالنظر إلى بعض الروايات الضعيفة التي سيرد بحثها، فقد ذهب بعض المستشرقين إلى الادعاء بأنه حيث كانت أمّ الإمام الجواد سوداء اللون، فإن الإمام الجواد عليه السلام قد اكتسب لون بشرتها.

٤. المسألة الرابعة هي مسألة وفاة الإمام الجواد عليه السلام أو استشهاده؛ حيث ذهب بعض المستشرقين استنادًا إلى بعض الروايات التاريخية، قالوا بأن استشهاد الإمام محمّد الجواد عليه السلام إنما هو قول بعض الشيعة، بل وهناك منهم من ذهب إلى الادعاء بأن بعض الشيعة بسبب اعتقادهم بوحدة أسباب وفيات الأئمة عليهم السلام أو ما كانت تنطوي عليه مسألة الاستشهاد من الآليات بالنسبة إلى الشيعة، فإنهم

كانوا يعملون على الترويج لفكرة استشهاد الإمام الجواد بتأثير السم.

٥. انتساب قميص خارق للعادة إلى الإمام الجواد عليه السلام، وأنه شكل درعًا حال دون إصابة الإمام بأيّ جرح، رغم تعرّضه لمحاولة اغتيال بالسيف، وأنه قد تعرّض لعدّة ضربات بالسيف دون أن يؤدّي إي منها إلى اختراق قميص الإمام، وقد شكل ذلك واحدًا من المسائل التي أشار المستشرقون إليها في بعض مصادرهم، وسوف نتحدّث عن هذه المسألة في سياق هذه المقالة.

شخصية الإمام الجواد عليه السلام

هناك معلومات قليلة حول الإمام الجواد عليه السلام في المصادر الغربية العامة حول الشيعة؛ من ذلك أن هاينس هالم، على سبيل المثال، قد اختصر الحديث حول الأئمة بعد الإمام الرضا عليه السلام في صفحتين فقط، ومن دون إشارة إلى حادثة اغتيال الإمام الجواد عليه السلام واستشهاده، اكتفى بالقول: «إنه قد توفي في بغداد»[١]. وقد عمد دونالدسون في كتاب مذهب الشيعة إلى البحث حول سيرة وحياة الإمام الجواد عليه السلام باختصار، وقال نقلًا عن تاريخ اليعقوبي: «وزوّج [المأمون] محمّد بن الرضا [الجواد عليه السلام] ابنته أمّ الفضل، وأمر له بألفي ألف درهم، وقال: إني أحببت أن أكون جدًا لامرئ ولده رسول الله وعلي بن أبي طالب»[٢]. وأضاف دونالدسون قائلًا: «شكك الكثيرون بخلافة الإمام الجواد عليه السلام لأبيه الإمام الرضا عليه السلام؛ بسبب صغر سنه، ولكنهم في طريقهم إلى الحج ـ إذ كان الإمام الجواد معهم ـ تأثروا بسعة علمه حيث أجاب عن ثلاثين ألف سؤال طرحها

---

١. هالم، تشيّع، ٧٣.

٢. دونالدسون، مذهب شيعة تاريخ اسلام در ايران وعراق (مجلدان)، ٢: ٢١ وانظر أيضًا: ابن واضح اليعقوبي، تاريخ اليعقوبي، ٢: ٤١٠.

عليه سادن الحرم؛ الأمر الذي أثار انبهار الجميع[١]؛ كما أن المأمون العباسي عقد له مناظرة في بغداد امتدّت على مدى ثلاثة أيام، وقد أجاب فيها عن جميع أسئلة الحاضرين»[٢].

وقد نقل موجان مومن التشكيكات بشأن هوية أمّ الإمام الجواد عليه السلام، ولكنه في نهاية المطاف عرّف بها بناء على القول المشهور القائل بأنها أمة من قبائل النوبة (في شمال السودان). وقد آلت إليه الإمامة وله من العمر سبع سنوات فقط، وقد أثار ذلك الشك لدى بعض الشيعة، بينما ذهب بعض الشيعة إلى التمسّك بآيات القرآن الكريم التي تثبت النبوة لعيسى بن مريم عليه السلام في صغره، كما نقلوا مختلف الحكايات حول سعة علمه[٣].

وفي دائرة المعارف الإسلامية وفي الاصدار الأول منها تمّ تخصيص ما يزيد قليلًا على عمود واحد بالإمام الجواد عليه السلام، تحت عنوان «محمّد بن علي»، بقلم: رودولف اشتروطمان[٤]. قال فيها: «إن ما ذكره أبو الفرج الإصفهاني من أنه أسمر البشرة، قد يكون صحيحًا لأن أمّه كانت أمة [سوداء]، وإن المأمون قد زوّجه ابنته أمّ الفضل». وقال اشتروطمان: «حتى في ضوء المصادر الشيعية كان لمحمّد التقي الجواد دورًا منفعلًا أيضًا»[٥]. ولم يذكر مصدرًا لهذا الكلام، ولكن يحتمل أن يكون مراده من الدور المنفعل للإمام هو بُعده عن النشاطات السياسية. فبعد استشهاد أبيه تعرّض الشيعة إلى بعض المشاكل بسبب صغر سنه، فالتحق

١. م.ن.، ٢٢.

٢. م.ن.، ٢٣.

3. Momen, *An Introduction to Shi'i Islam*, 42.

4. Rudolf Strothman, EI 1, vol. 3, p. 670.

5. Ibid, 670.

بعضهم بالواقفة، ومال بعضهم إلى الزيدية، بينما بقي آخرون على القول بإمامة الإمام محمّد التقي الجواد عليه السلام، وقد تكررت هذه المشكلة مع الأئمة اللاحقين أيضًا. وقد أشار اشتروطمان في البين إلى نبوّة النبي عيسى بن مريم عليه السلام في صغره ـ بطبيعة الحال ـ واعتبر مسألة إمام الإمام الجواد عليه السلام في صغره من هذا القبيل، وأضاف في نهاية المطاف أنه قد دفن إلى جوار جدّه [الإمام موسى الكاظم عليه السلام].

وفي دائرة المعارف الإسلامية وقعت عملية الاصدار الثاني لمدخل «الإمام محمّد الجواد» على عاتق ولفرد مادلونغ[1]. إن سعة إطلاع مادلونغ وعمق آثاره حول التشيّع أفضل بكثير من اشتروطمان، ومن خلال المقارنة بينهما نجد أن مادلونغ أكثر اطلاعًا على حياة الإمام الجواد عليه السلام؛ ومع ذلك فإن هذا المدخل هو الآخر يُعتبر بدوره بالغ الاقتضاب ولا يزيد على العمود الواحد، ولم يُشر إلى أيّ بُعد من الأبعاد العلمية للإمام الجواد عليه السلام. وقد تردّد مادلونغ بشأن أمّ الإمام الجواد، وتحدّث عن واحدة من بين ثلاث إماء بوصفها هي الأمّ للإمام محمّد الجواد عليه السلام. وقال في التعريف به: «هو الابن الوحيد للإمام الرضا عليه السلام، وكان له عندما وصل إلى الإمامة سبع سنوات فقط، وقد أحدث وصوله إلى منصب الإمامة في صغر سنه وعدم بلوغه الكثير من النزاعات بين أتباع أبيه، بل وإن بعض التيارات التي دعمت تنصيب الإمام الرضا عليه السلام في ولاية العهد ـ في حركة انتهازية منها ـ عادت بعد استشهاده إلى ما كانت عليه في حقيقة أمرها إلى المذاهب السنية والزيدية. وقد تمّ عقد قرانه على أم الفضل عندما كان صغيرًا، وقد بقي زواجه من أمّ الفضل دون إنجاب. وقد أشار مادلونغ بدوره إلى شكوى أم الفضل من الإمام الجواد عند أبيها، وقال إن أم الفضل شكت إلى أبيها من المحاباة التي كان

1. Madelung, “Muḥammad b. ʿAlī al-Riḍā,” 396 - 397.

الإمام محمّد الجواد عليه السلام يوليها لإمائه وتفضيله لهنّ عليها، بيد أن المأمون رفض شكواها. وأضاف أن المعتصم خليفة المأمون بعد سنة من وصوله إلى الخلافة بعد وفاة المأمون، استدعى الإمام الجواد عليه السلام إلى بغداد لأسباب مجهولة. وقد وجّهت بعض مصادر الشيعة أصابع الاتهام إلى المعتصم أو إلى أمّ الفضل بدسّ السمّ إليه، بيد أن الشيخ المفيد أنكر ذلك صراحة. وسوف نبحث في الفصول القادمة من هذه المقالة حول استشهاد أو وفاة الإمام الجواد عليه السلام، وكذلك الروايات بشأن شكوى أمّ الفضل عند المأمون من الإمام الجواد عليه السلام والأحداث التي رافقت هذا الأمر.

المستشرقون وإمامة الإمام الجواد عليه السلام في الصغر

في دائرة المعارف إيرانيكا نجد مدخل «محمّد الجواد» بقلم: لويس ميدوف[1]،[2] وهذا المدخل بدوره لا يتجاوز الثلاثمئة كلمة. يرى ميدوف أن التحدّي الأكبر الذي واجه الإمام الجواد عليه السلام كان عبارة عن صغر سنه. وقال في هذا الشأن: «في فترة صغره كان وكلاء الأئمة عليهم السلام من الشيعة هم الذين يديرون الأمور، وكذلك فإن مصادر الإمامية تثبت الكثير من المعاجز إلى الإمام الجواد عليه السلام»[3]. كما ذكر غيره من المستشرقين، ومن بينهم «شونا واردروب» مسألة صغر سن الإمام الجواد عليه السلام. فقد ذكر شونا واردروب في أطروحته على مستوى الدكتوراه في جامعة إدينبره تحت إشراف يان هاوارد[4] بعنوان «حياة الإمام محمّد الجواد

1. Louis Medoff
2. https://iranicaonline.org/articles/mohammad-al-jawad
3. Ibid.
4. Ian Keith Anderson Howard

والإمام علي الهادي عليهما السلام وتطوّر المؤسسة الشيعية»[1] لقد كان الشيعة يواجهون تحديًا قد تمثّل بصغر سن الإمام الجواد، ومن هنا فقد اجتمع ـ بعد استشهاد الإمام علي بن موسى الرضا عليه السلام ـ عدد من الأصحاب وكبار الشخصيات، ومن بينهم: الريان بن الصلت، وصفوان بن يحيى، ويونس بن عبد الرحمن، وجماعة من كبار الشيعة في منزل عبد الرحمن بن الحجاج، وقد ماجوا ببعضهم وأخذوا يضجّون. فقال يونس بن عبد الرحمن: على من نطرح مسائلنا إلى حين يبلغ أبو جعفر؟ يقول واردروب: يتضح من فحوى هذا السؤال أنه لم يكن هناك بحث في أصل إمامة الإمام الجواد، وإنما التحدّي الأكبر قد تمثّل في صغر سن الإمام الجواد، وهنا غضب الريان بن الصلت وقال له: «إنك تتظاهر بالإيمان بالإمام الجواد، ولكن يبدو أنك في قرارة نفسك تشك في إمامته وتضمر الشرك. فإن كانت إمامته من عند الله، فهو في الواقع شيخ حتى لو كان طفلًا له من العمر يوم واحد فقط، وإن لم يكن إمامًا في علم الله فهو مثل سائر الناس حتى لو بلغ من العمر مئات الأعوام»[2]. لم يكن أيّ واحد من الأئمة السابقين قد واجه مثل هذا التحدّي الذي واجه الإمام الجواد عليه السلام بسبب صغر سنه[3]. وحتى الإمام الكاظم عليه السلام على الرغم من وصوله إلى منصب الإمامة عن عشرين سنة وقد أثبتت النصوص الكثير من المعاجز له في صغره، ولكن مضت مدّة طويلة حتى حظي بالقبول بين عموم الشيعة[4]. وقد بقي الشك على حاله في مورد الإمام الجواد عليه السلام حتى قام ما يقرب

1. Wardrop, "The Lives of the Imāms, Muḥammad al- Jawād and ʿAlī al- Hādī and the Development of the Shīʿite Organization."
2. Ibid, 6.
3. Ibid, 63.
4. Ibid.

من ثمانين فقيهًا في المدينة في موسم الحج بالتوجّه إلى عبد الله بن موسى عمّ الإمام الجواد وطرحوا عليه بعض الأسئلة، ولكن إجاباته عنها لم تكن مقنعة بالنسبة إليهم، حتى ظهر الإمام الجواد عليه السلام لهم وأجاب عن أسئلتهم واقنعهم، ثم عاتب عمه على سعيه إلى تقمّص الإمامة والتظاهر بأنها من حقه[١].

وقد رأى أن صغر سنّ الإمام الجواد عليه السلام كان هو العقبة المحورية التي حالت دون التعريف به بوصفه إمامًا. وقال في ذلك: «لقد ورد في تعاليم الإمام الباقر عليه السلام أن علم الإمام بل وكونه أعلى مرتبة من الفقيه العادي، يأتي بوصفه علامة أو شرطًا في تولي منصب الإمامة»[٢]. وقد ذكر رواية مأثورة عن الإمام الرضا عليه السلام، يقول فيها [ما مضمونه]: «ليس هناك فقيه يدانيه في العلم»[٣]. وقد أضاف هنا أن مشكلة صغر سنّ الإمام قد أدّت إلى طرح هذا السؤال، وهي: كيف يمكن لطفل في مثل سنّه أن يمتلك علمًا لفقيه أو يسمو عليه في ذلك؟ لا سيّما وأن هذا الطفل لم يدرك إلا فترة قصيرة من حياة والده[٤]. بل وفي بعض الروايات أن هذه المسألة قد أنهيت إليه لاحقًا؛ وقيل له: إن الناس يشكّون في أمرك بسبب صغر سنك[٥]. وقد أضاف واردروب قائلًا: «ذات هذه الإشكالات والإجابات تكررت في عصر الإمام الثاني عشر عليه السلام أيضًا؛ حيث قال بعضهم: إنه على الرغم من صغر سنه فهو إمام ويجب اتباعه، وقال بعضهم إنه إمام على مستوى الاعتقاد، وأما في المسائل المهمّة فيجب على العلماء ان يتخذوا القرارات بأنفسهم»[٦].

1. Ibid, 8.
2. Ibid, 25.
3. Ibid, 27.
4. Ibid, 28.
5. Ibid.
6. Ibid, 30.

إن مسألة صغر سنّ الإمام كانت موضعًا للسؤال والجواب في عصر الأئمة أنفسهم، ويرى الشيعة أن الإمامة أمر إلهي ويتمّ تحديدها بتنصيب من الله سبحانه وتعالى، وقد ورد التأكيد على ذلك في القرآن الكريم أيضًا، كما في قوله تعالى: ﴿**وَإِذِ ابْتَلَى إِبْرَاهِيمَ رَبُّهُ بِكَلِمَاتٍ فَأَتَمَّهُنَّ قَالَ إِنِّي جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامًا قَالَ وَمِنْ ذُرِّيَّتِي قَالَ لَا يَنَالُ عَهْدِي الظَّالِمِينَ**﴾(البقرة: ١٢٤). ومن هنا فقد ورد في الأثر أن صفوان بن يحيى عندما التقى بالإمام الرضا عليه السلام سأله قائلًا: لمن تكون الإمامة بعدك إن حدث لك حادث؟ فأشار الإمام الرضا عليه السلام إلى الإمام الجواد عليه السلام وكان جالسًا أمامه ولم يكن عمره قد تجاوز السنة الثالثة بعد. ومن هنا فقد قال صفوان: جُعلت فداك، ليس له من العمر سوى ثلاث سنوات؟! فقال الإمام الرضا عليه السلام: «**وَ مَا يَضُرُّ مِنْ ذَلِكَ؟! قَدْ قَامَ عِيسَى عليه السلام بِالْحُجَّةِ وَهُوَ ابْنُ أَقَلَّ مِنْ ثَلَاثِ سِنِينَ**»[١]. كما أكد المفسرون من الشيعة وأهل السنة على الإيمان بالنبوة والحكمة في مرحلة الصغر والصبا، في ضوء قوله سبحانه وتعالى: ﴿**يَا يَحْيَى خُذِ الْكِتَابَ بِقُوَّةٍ وَآتَيْنَاهُ الْحُكْمَ صَبِيًّا**﴾(مريم: ١٢). قال الفخر الرازي: هناك عدّة احتمالات بأن المراد من الحكم في هذه الآية، وإن أفضل هذه الأقوال هو القول بأن المراد من الحكم هنا هو النبوّة، وإن الله قد أعطى ليحيى مقاليد النبوّة في صغره. وإليك نصّ كلام الرازي في هذا الشأن: «إنه النبوة؛ فإن الله تعالى أحكم عقله في صباه وأوحى إليه؛ وذلك لأن الله تعالى بعث يحيى وعيسى عليهما السلام وهما صبيان لا كما بعث موسى ومحمّدًا عليهما السلام، وقد بلغا الأشد. والأقرب حمله على النبوة»[٢].

كما قال الشيخ المفيد في كتابه الفصول المختارة، في معرض الدفاع عن إمامة

---

١. المفيد، الإرشاد في معرفة حجج الله على العباد، ٢: ٢٧٦ ـ ٢٧٩.

٢. الفخر الرازي، التفسير الكبير، ٢١: ٥١٦.

الإمام الجواد عليه السلام: «ذلك أن كمال العقل لا يستنكر لحجج الله تعالى مع صغر السن؛ قال الله سبحانه: ﴿... **قَالُوا كَيْفَ نُكَلِّمُ مَنْ كَانَ فِي الْمَهْدِ صَبِيًّا * قَالَ إِنِّي عَبْدُ اللَّهِ آتَانِيَ الْكِتَابَ وَجَعَلَنِي نَبِيًّا** ﴾(مريم: ٢٩-٣٠) فَخَبَّرَ عن المسيح عليه السلام بالكلام في المهد. وقال في قصة النبي يحيى عليه السلام: ﴿**وَآتَيْنَاهُ الْحُكْمَ صَبِيًّا** ﴾(مريم: ١٢). وقد أجمع جمهور الشيعة مع سائر من خالفهم على أن رسول الله صلى الله عليه وآله دعا عليًا عليه السلام وهو صغير السن»[١].

وعلى هذا الأساس حيث تكون الإمامة منصبًا إلهيًا، وإن لوازمها من قبيل: العلم والحكمة والعصمة تكون بدورها من قبل الله سبحانه وتعالى، أمكن أن يعطيها إلى الإنسان في الصغر، ونماذج ذلك بين الأنبياء أكثر من ذلك.

وبطبيعة الحال فإن واردروب قد أشار إلى أدلة الشيعة في الجواب عن التحدّي الذي شكله صغر سنّ الإمام الجواد عليه السلام، وقال إنه بالإضافة إلى الاستدلال بنبوّة النبي عيسى عليه السلام، فقد تمّ الاستدلال بدعوة النبي الأكرم صلى الله عليه وآله للإمام علي عليه السلام إلى الإيمان بالإسلام ولم يكن يبلغ من العمر سوى عشر سنوات، وأن الإمام الحسن والإمام الحسين عليهما السلام قد آمنا به في الصغَر[٢]. وقد خصص عدّة صفحات لأدلة الشيعة بشأن قياس الإمامة على النبوّة، واستدلالهم بآيات القرآن الكريم حول نبوّة النبي عيسى بن مريم عليه السلام و[يحيى بن] زكريا[٣]. وبالتالي فإنه حتى العوامل الخارجية بدورها لم تكن قادرة على ضرب الانسجام الشيعي بالكامل، أو أن تحول دون تبلور الرؤية بشأن الإمامة في الصغَر[٤].

---

١. المفيد، الفصول المختارة، ١: ٣١٦.

2. Wardrop, *The Lives of the Imāms, Muḥammad al- Jawād and ʿAlī al- Hādī*, 41.

3. Ibid, 64 - 69.

4. Ibid, 42.

لقد عمد واردروب إلى تقسيم المشاكل والتحديات التي كانت ماثلة أمام الإمام محمّد الجواد عليه السلام إلى قسمين، وهما القسم الداخلي والقسم الخارجي. وفي تحليل الموانع الخارجية التي تعرّض لها الإمام الجواد، تحدّث واردروب عن العباسيين، وقال: «إن زواج أم الفضل بنت المأمون من الإمام الجواد عليه السلام وكذلك زواج بنت المأمون الأخرى من الإمام علي بن موسى الرضا عليه السلام كان زواجًا سياسيًا لجأ إليه المأمون لغرض التقرّب من العلويين والسيطرة عليهم؛ وذلك لأن الإمام الجواد عليه السلام في حينها لم يكن قد تجاوز السنة السابعة من عمره، ثم إنه لم يكن متواجدًا في مراسيم العقد أصلًا»[1]. وقد نقل بعض الأبحاث بين المصادر الشيعية والسنية حول تاريخ تحقق هذا الزواج[2]، وقال في هذا الشأن: «إن هذه الخطوة التي قام بها المأمون ضاعفت من تعقيد الوضع؛ إلى الحدّ الذي عمدت معه جماعة من العباسيين إلى إرسال كتاب إلى المأمون يقولون فيه: لا تُبعد عنا نعمة خصّنا الله بها، ولا تنقص درجة منّ الله بها علينا، وأنت على دراية بما حدث بيننا وبين أبناء أبي طالب، ثم إنه (الجواد) لا يعدو أن يكون غلامًا عديم التجربة[3]؛ ثم إن الهاشميين بدورهم ـ طبقًا لما نُقل عنهم في كتاب عيون أخبار الرضا عليه السلام ـ قد اعترضوا على تنصيب الإمام علي بن موسى الرضا عليه السلام لولاية العهد أيضًا، وقالوا كيف ينصب المأمون شخصًا غير عارف بالأمور ولا يحظى بالمقبولية العامة ليصبح هو الخليفة القادم[4].

وقد عمد المأمون في المقابل بالإشادة والثناء على الإمام الجواد، وأقام مجالس

1. Ibid, 32.
2. Ibid, 33.
3. Ibid, 35.
4. Ibid, 36.

المناظرات لاختبار الإمام الجواد عليه السلام، وفي واحدة من تلك المناظرات سأله أحد العلماء عن رأيه بشأن الخلفاء، فأجابه الإمام الجواد عليه السلام بجواب يجمع بين الدقة والابتعاد عن إثارة المشاحنات[١]؛ كما كان المأمون يؤكد على علم الإمام علي بن موسى الرضا عليه السلام في الردّ على من كان يخالف تنصيبه في ولاية العهد، وقد أقام الكثير من المناظرات لإثبات ذلك للعباسيين[٢].

وفي قسم الموانع الداخلية وبدائل الإمام الجواد عليه السلام، عمد واردروب في بداية الأمر إلى إثارة بحث حول خلافة الأخ لأخيه في الإمامة، وقال: «إن الروايات الموجودة في المصادر الشيعية في هذا الشأن، تأتي في الغالب لتفسير إمامة الإمام الحسين عليه السلام بعد الإمام الحسن المجتبى عليه السلام، وأن الإمامة فخر ناله أبناء الحسين عليه السلام ولم تعد بعد ذلك إلى أبناء الإمام الحسن عليه السلام»[٣]. ولذلك فقد نقل عن بحار الأنوار أنه لن يكون هناك انتقال للإمامة من الأخ إلى أخيه بعد الإمام الحسن والإمام الحسين عليهما السلام. بل وقد ورد في الأثر عن الإمام جعفر الصادق عليه السلام، أنه قال [ما معناه]: «لو دار الأمر بين الأخ الأكبر والابن الأصغر، لكن الابن الأصغر هو الإمام»[٤]. وحيث أن الإمام الرضا عليه السلام لم يُرزق بولد إلا بعد وقت طويل، فقد كان يتمّ توجيه السؤال إليه بشأن من يخلفه في الإمامة، فكان يجيب بأن الله سوف يرزقه بولد يكون خليفته في الإمامة[٥]. وقد ذكر بعض التقارير حول دعم علي بن جعفر للإمام الجواد عليه السلام، ويضيف هذه النقطة أيضًا

1. Ibid, 38.
2. Ibid, 41.
3. Ibid, 43.
4. Ibid, 44.
5. Ibid, 45.

وهي أن دعم علي بن جعفر للإمام الجواد عليه السلام كان الغرض منه هو الانتفاع من إمامته[١]. وبشكل عام فقد تعرّض واردروب في هذا الفصل إلى بحث ادعاء الإمامة من قبل إبراهيم بن موسى، وكذلك جهود الزيدية.

كيفية علم الإمام وطرق تحصيله

إن مسألة علم الإمام هي من جملة المسائل التي تعرّض المستشرقون إلى بحثها. وقد تعرّض إدموند هايز في مقالة له إلى دراسة واحدة من رسائل الإمام الجواد عليه السلام حول الخمس[٢]. وهو في هذه المقالة بالإضافة إلى ترجمة رسالة الإمام الجواد عليه السلام إلى علي بن مهزيار، تعرّض إلى تحليل مضمونها أيضًا، وتدور أغلب مسائل هذه المقالة حول الأمور الفقهية والروائية. وقامت السيّدة تميمه بيكم دائو بدورها بأبحاث عن الإمام الجواد عليه السلام في الأطروحة التي كتبها على مستوى الدكتوراه في جامعة لندن. إن هذه الأطروحة التي تبحث حول علم الإمام[٣]، من خلال الإحالة إلى مصادر من قبيل المقالات والفرَق للأشعري القمّي[٤]، قالت: وقع البحث والاختلاف بين كبار الشيعة بعد استشهاد الإمام الرضا عليه السلام حول إمكان الإمامة في الصغَر، وكذلك حول كيفية علمه[٥].

---

1. Ibid, 53.
2. Hayes, *Between Implementation and Legislation: The Shi'i Imam Muḥammad al-Jawād's Khums Demand Letter*, 382 - 414.
3. Daou, *The Imãmi Shi`i Conception of the Knowledge of the Imãm and the Sourcesof Religious Doctrine.*

٤. الأشعري القمي، المقالات والفرَق، ٩٥ ـ ٩٩.

5. Daou, *The Imãmi Shi`i Conception of the Knowledge of the Imãm and the Sources of Religious Doctrine*, 19.

وقد نقلت تميمة بيكم عن النوبختي أن الشيعة بعد الإمام الرضا عليه السلام انقسموا إلى عدّة أقسام، وهناك من أنكر إمامته بسبب صغر سنّه. وقالت إن الاختلاف كان سببه عبارة عن جهلهم بمصادر علم الإمام ومن أيّ طريق يكتسبه. وهناك من قال إنه كان يأخذ علمه من كتب أبيه، وسوف يكون ذلك بعد بلوغه. وقالت تميمة بيكوم بعد نقل هذا الكلام قد يكون ما قاله النوبختي بشأن الاختلاف حول علم الإمام هو رأيه الخاص، وليس رأي علماء الشيعة[1].

وقد اشارت تميمة بيكوم إلى اختلاف آخر حول إمامة الإمام الجواد عليه السلام أيضًا، وهو أن الذين قالوا بإمامته قد اختلفوا بدورهم فيما بينهم بين من قال إن إمامته قد بدأت من حين وفاة أبيه الإمام الرضا عليه السلام، وبين من قال إن إمامته سوف تبدأ بعد وصوله إلى سنّ البلوغ والتكليف. وهناك من قال إنه قد اكتسب العلم من أبيه، بينما ذهب آخرون إلى القول بأنه حيث كان والده في خراسان، وإن والده عندما انفصل عنه لم يكن قد تجاوز عمره السنة الرابعة إلى قليلًا، وإن هذا المقدار من العمر لا يكفي ليتعلم الكثير من المسائل عن أبيه. وذهبت طائفة ثالثة إلى القول بأن الإمام هو الجواد عليه السلام وليس غيره، ولكن لا تجب إطاعته قبل البلوغ، وعليه لا يمكنه قبل ذلك إصدار أمر أو نهي[2]. إن الأبحاث التي تقدّمها تميمة بيكوم توصيفية إلى حدّ ما وتستند فيها إلى مصادر الفِرَق.

إن العمل الأهم حول الإمام الجواد عليه السلام، هو الذي قام به «شونا واردروب» في أطروحته على مستوى الدكتوراه في جامعة إدنبره بعنوان «حياة الإمام محمّد الجواد والإمام علي الهادي وتطوّر المؤسسة الشيعية»[3]. وكانت هذه الأطروحة

1. Ibid, 56.

2. Ibid, 116 - 117.

3. Wardrop, *The Lives of the Imāms, Muḥammad al- Jawād and ʿAlī al- Hādī and the*

الجامعية تحت إشراف يان هاوارد[1]. وقد أقرّ واردروب في هذه الدراسة بشحّ التحقيقات حول الإمامين الجواد والهادي عليهما السلام، خلافًا للأئمة من أمثال: الإمام الباقر والإمام الصادق والإمام الرضا عليهم السلام، وربما لهذا السبب لم يرَ الباحثون الغربيون غير تأثير قليل لهذين الإمامين في التاريخ أو في تبلور عقائد الشيعة. لا شك في أن الأئمة الأوائل عليهم السلام كان لهم دور أكبر في بلورة الفكر الشيعي من حيث المسائل الكلامية والفقهية. وقد عمد واردروب إلى تقسيم الفصل الخاص بحياة الإمام الجواد عليه السلام إلى عدّة أقسام:

١. دور الأصحاب في تعيين وتعزيز إمامة الإمام الجواد عليه السلام.

٢. مشكلة صغر سنّ الإمام الجواد عليه السلام.

٣. العوامل الخارجية ومعضلة العباسيين.

٤. المشكلة الداخلية والمنافسون للإمام الجواد عليه السلام.

لقد تعرّض واردروب في القسم الأول إلى دور الأصحاب وكبار الشخصيات وأنصار الأئمة الأطهار عليهم السلام في التعريف بالإمام الجديد؛ حيث تعبّر عنهم بعنوان الأصحاب والصحابة. وقد نقل الكثير من الروايات عن الكتب والمصادر الشيعية حول دورهم في التعريف بإمامة الإمام الجديد وتثبيتها. وقال في هذا الشأن: «لقد عمد المأمون إلى إحضار الإمام الجواد عليه السلام إلى بغداد، ليكون تحت رقابته في القصر، ولم يتمّ الاعتراف بإمامة الإمام الجواد صراحة حتى بلوغه سنّ التاسعة أو العاشرة من عمره»[2]. وقال من خلال التأكيد على موقع هؤلاء الأشخاص في الدفاع عن الإمام الجديد والإشارة إلى الأئمة السابقين: «إن

Development of the Shī'ite Organization"..

1. Ian Keith Anderson Howard

2. Ibid, 4.

المسألة الأهم بالنسبة إلى الأصحاب الكبار كانت تتمثّل في إثبات الإمامة؛ كما أن الإمام الصادق عليه السلام كان بدوره يواجه هذا التحدّي أيضًا، حيث كان يتعيّن عليه أن يُثبت نفسه لكبار الشيعة. وكذلك فيما يتعلق بالإمام الكاظم عليه السلام يروى أن أبا بصير ـ وهو من كبار القوم ـ كان يقول: يبدو أن صاحبنا لا يزال مفتقرًا إلى العلم الكافي الذي يجعله جديرًا بالإمامة»[1].

إن ما قاله واردروب من أن الأئمة كان يتعيّن عليهم إثبات إمامتهم بالنسبة إلى مختلف المخاطبين لهم، صحيح إلى حدّ ما. إلا أن نقل كلام أبي بصير دون بيان آراء علماء الشيعة في هذا الشأن، يدعو إلى التأمّل. وعلى كل حال فإن واردروب يُشير في هذا الكلام إلى رواية شُعَيْبِ بْنِ يَعْقُوبَ الْعَقَرْقُوفِيِّ، قَالَ: سَأَلْتُ أَبَا الْحَسَنِ [عليه السلام] عَنْ رَجُلٍ تَزَوَّجَ امْرَأَةً لَهَا زَوْجٌ وَلَمْ يَعْلَمْ؟ قَالَ [عليه السلام] «تُرْجَمُ الْمَرْأَةُ وَلَيْسَ عَلَى الرَّجُلِ شَيْءٌ إِذَا لَمْ يَعْلَمْ» قَالَ: فَذَكَرْتُ ذَلِكَ لِأَبِي بَصِيرٍ قَالَ: فَقَالَ لِي وَاللَّهِ لَقَدْ قَالَ جَعْفَرٌ [عليه السلام]: «تُرْجَمُ الْمَرْأَةُ وَيُجْلَدُ الرَّجُلُ الْحَدَّ» وَقَالَ بِيَدَيْهِ عَلَى صَدْرِي فَحَكَّهُ مَا أَظُنُّ صَاحِبَنَا تَكَامَلَ عِلْمُهُ[2].

هناك في هذا الشأن أمران جديران بالتأمل، وهما أولًا: هل علم الأئمة قابل للزيادة؟ وثانيًا: هل يمكن القبول بمقالة أبي بصير؟ يرى الشيعة أن علم الإمام هو من قبيل العلم اللدني، وبطبيعة الحال فإن علمهم قابل للزيادة والتكميل؛ إذ ورد في القرآن الكريم أن الله سبحانه يأمر النبي الأكرم صلى الله عليه وآله بالدعاء لنفسه بزيادة العلم: ﴿وَقُلْ رَبِّ زِدْنِي عِلْمًا﴾(طه: ١١٤). إن علم الأئمة المعصومين عليهم السلام ـ في ضوء المباني الكلامية للشيعة، قابل للتحصيل من عدّة طرق؛ وهذه الطرق

1. Ibid, 13.

٢. الطوسي، اختيار معرفة الرجال، ١٧٢.

بأجمعها طرق إلهية أو من طريق الإمام السابق وليست بواسطة التعلم من الأشخاص الآخرين[١]. وهذه الطرق عبارة عن التعلّم من النبي الأكرم صلى الله عليه وآله، وانتقال ذلك إلى الإمام اللاحق، فقد روي عن الإمام علي عليه السلام، أنه قال: «إِنَّ رَسُولَ اللَّهِ صلى الله عليه وآله عَلَّمَنِي أَلْفَ بَابٍ مِنَ الْحَلَالِ وَالْحَرَامِ وَمِمَّا كَانَ وَمِمَّا يَكُونُ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ كُلُّ بَابٍ مِنْهَا يَفْتَحُ أَلْفَ بَابٍ فَذَلِكَ أَلْفُ أَلْفِ بَابٍ حَتَّى عَلِمْتُ عِلْمَ الْمَنَايَا وَالْبَلَايَا وَفَصْلَ الْخِطَابِ[٢]»[٣].

كما أن علم الأئمة عليهم السلام قابل للاستناد والزيادة من طريق مصحف فاطمة الزهراء عليها السلام ومصحف الإمام علي عليه السلام أيضًا. يُضاف إلى ذلك أنه قد ورد في الروايات المأثورة أن الأئمة الأطهار عليهم السلام محدّثون؛ أي أن علمهم قابل للزيادة من طريق الإلهام الإلهي. فقد ورد في الأثر عن الحارث بن المغيرة، عن أبي عبد الله عليه السلام، قال: قُلْتُ أَخْبِرْنِي عَنْ عِلْمِ عَالِمِكُمْ قَالَ عليه السلام «وِرَاثَةٌ مِنْ رَسُولِ اللَّهِ صلى الله عليه وآله وَمِنْ عَلِيٍّ عليه السلام» قَالَ قُلْتُ: إِنَّا نَتَحَدَّثُ أَنَّهُ يُقْذَفُ فِي قُلُوبِكُمْ وَيُنْكَتُ فِي آذَانِكُمْ قَالَ: «أَوْ ذَاك»[٤].

وعلى هذا الأساس يمكن القول بأن علم الإمام عليه السلام قابل للزيادة، ولكن مع ذلك لا يمكن القبول بما قاله أبو بصير؛ وذلك لأن من مسؤولية الإمام بيان الحقائق الدينية، وما لم يكن الحكم واضحًا بالنسبة إليه، فإنه لا يقول فيه شيئًا، ومن هنا فإن الإمام عندما يُسأل عن شيء فإنه سوف يجيب عنه بما هو واقع، إلا في بعض الظروف الخاصة من قبيل موارد التقية وما إلى ذلك، حيث يجب عليه

١. الخرازي، بداية المعارف الإلهية، ٢: ٤٦ ـ ٤٨.
٢. فصل الخطاب: الكلام الفصيح الذي يميز بين الحق والباطل، ويضع حدًا للنزاع في القضاء.
٣. الصدوق، الخصال، ٢: ٦٤٦.
٤. الكليني، الكافي، ١: ٢٦٤.

الكتمان في مثل هذه الموارد. وعلى هذا الأساس لا يمكن القبول بمقالة أبي بصير. ومن هنا فقد علّق الفيض الكاشاني عن هذا الكلام المنسوب إلى أبي بصير ـ القائل «أظن صاحبنا ما تكامل علمه» ـ بقوله: «هذا يدلّ على تخليط في أبي بصير وضعف عقل، والظاهر أن أبا بصير هذا هو يحيى بن القاسم، وروايته مردودة عليه؛ لأنها تخالف الأصول المعلومة، والرجل إذا تزوّج بذات بعل جاهلًا لا يكون عاصيًا بعلمه، فلا يُحدّ»[1]. وبطبيعة الحال فإن الشيخ الطوسي سعى إلى الجمع بين مضمون الروايتين؛ حيث قال: لا تنافي بين ما رواه شعيب عن أبي الحسن عليه السلام، وبين ما سمع أبو بصير عن أبي عبد الله عليه السلام؛ لأن الذى سأل أبا الحسن عليه السلام يجوز أن يكون تزوج بالمرأة وهو لا يعلم أن لها زوجًا؛ فأفتاه بأن ليس عليه شيء، والذي سمعه أبو بصير عن أبي عبد الله عليه السلام يكون فيمن تزوج بها وهو يعلم أن لها زوجًا ودخل بها فأوجب عليه هو أيضًا الحد لأن هذا زنى، ولا تنافي بين الخبرين والفتيائين، وإنما اشتبه الأمر على أبي بصير فلم يميز بين إحدى المسألتين من الأخرى فظن أن بينهما تنافيًا.

وقال العلامة المجلسي في كتاب ملاذ الأخيار: إن هذه الرواية تستوجب ذمًا كبيرًا على أبي بصير، يرقى إلى حدّ تأييد نسبة الوقف إليه؛ إذ وقف على الإمام جعفر الصادق عليه السلام، وإليك نص عبارة المجلسي في هذا الشأن: «وهو مشتمل على قدح عظيم في أبي بصير... وهذا يؤيد ما قيل في توجيه كون أبي بصير هذا واقفيًا، بأنه كان واقفًا على أبي عبد الله عليه السلام؛ أي كان ناووسيًا، فأطلق عليه الواقفي بحسب اللغة، إذ لا معنى لكونه واقفيًا بالمعنى المصطلح، مع أنه مات قبل وفاة

١. الفيض الكاشاني، الوافي، ١٥: ٣١٥.

الكاظم عليه السلام بثلاث وثلاثين سنة»[١]. وعلى كل حال فإن كلام أبي بصير حول نقص علم الإمام عليه السلام غير مقبول من قبل علماء الشيعة.

ورد في بعض الروايات أن الإمام الجواد عليه السلام قد علم باستشهاد والده الإمام علي بن موسى الرضا عليه السلام حتى قبل وصول الخبر إلى المدينة المنوّرة؛ ولم يرد توضيح في هذا الشأن، سوى ما ورد في كتاب كشف الغمّة عن الإمام الجواد عليه السلام، أنه قال: «لقد دفنت والدي بنفسي»[٢]. وإن القول بأن كل إمام يقوم بتجهيز ودفن الإمام السابق قد شاعت منذ عصر الإمام الرضا عليه السلام[٣]. كما ورد في رواية عن الإمام أنه قد شعر عند انتقال الإمامة إليه بعد استشهاد أبيه بذلة لم يسبق له أن عرفها من قبل؛ فقد نقل عن هارون بن الفضل، قال: رَأَيْتُ أَبَا الْحَسَنِ عَلِيَّ بْنَ مُحَمَّدٍ فِي الْيَوْمِ الَّذِي تُوُفِّيَ فِيهِ أَبُو جَعْفَرٍ عليه السلام فَقَالَ «إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ راجِعُونَ؛ مَضَى أَبُو جَعْفَرٍ عليه السلام» فَقِيلَ لَهُ: وَكَيْفَ عَرَفْتَ؟ قَالَ: لِأَنَّهُ تَدَاخَلَنِي ذِلَّةٌ لِلَّهِ لَمْ أَكُنْ أَعْرِفُهَا»[٤].[٥] وقد تحدّث واردروب عن وضع الإمام الجواد عليه السلام تحت الرقابة المشدّدة من قبل خلفاء الدولة العباسية، قائلًا: «إن الإمام الجواد سواء عندما كان في قصر الخليفة العباسي في بغداد، أو عندما كان في المدينة المنوّرة، كان رازحًا تحت الرقابة المشددة من قبل عيون الخليفة»[٦].

إن واردروب على دراية جيدة بالمصادر الشيعية، ويقوم بإحالات كثيرة إلى

---

١. المجلسي، ملاذ الأخيار في فهم تهذيب الأخبار، ١٢: ٥١٠.

2. Wardrop, *The Lives of the Imāms, Muḥammad al- Jawād and ʿAlī al- Hādī*, 74.

3. Ibid, 75.

٤. الكليني، الكافي، ١: ٣٨١.

5. Wardrop, *The Lives of the Imāms, Muḥammad al- Jawād and ʿAlī al- Hādī*, 77.

6. Ibid, 240.

الكتب العربية الشيعية؛ ومع ذلك فإن الشيء الذي قلما نشاهده في الدراسات الإسلامية التي يقوم بها الغربيون، عبارة عن عدم الاستفادة من الدراسات والتحقيقات المعاصرة في السيرة والتاريخ، وكذلك في هذه الدراسة لا نرى إحالة إلى الدراسات المعاصرة في هذا الشأن، وبالإضافة إلى ذلك لم يرد في هذه الدراسة التفصيلية تقرير بالآراء والأحاديث المأثورة عن الإمام الجواد عليه السلام. إن عمدة أبحاث هذه الدراسة يختصّ بإثبات الإمامة والصعوبات المرتبطة بها. ومع ذلك كان من المتوقع لهذه الدراسة بإشراف يان هاوارد أن تخرج بتحقيق إيجابي متماه مع المصادر الشيعية.

ادعاء سواد لون بشرة الإمام الجواد عليه السلام

لقد كان مدخل الإمام الجواد في الإصدار الأول لدائرة المعارف الإسلامية، مقتضبًا جدًا، ولم يشمل الأبعاد الشخصية ولا الأحداث الواقعة، ولا المناظرات التي جرت مع الإمام، ناهيك عن دراسة وتحليل الأحاديث والتعاليم المنقولة عنه. ولكن حتى في هذا النص المقتضب، تمّت إثارة مسائل تحتاج إلى نقد وتحقيق، ومن بينها الادعاء القائل بأن الإمام الجواد عليه السلام كان أسود لون البشرة[1]. كما تمّ ذكر هذا الرأي في الأطروحة العلمية لشونا واردروب أيضًا. قال واردروب من خلال الإشارة إلى رواية سواد بشرة الإمام الجواد عليه السلام نقلًا عن بعض المصادر: «قال بعض المخالفين: لم يسبق أن رأينا إمامًا بمثل هذا اللون، وبطبيعة الحال فإن واردروب قد بين تشكيكه في الهامش[2]، ولكن على كل حال فقد شاع هذا الرأي بين بعض المستشرقين، وإن منشأ هذا القول يحتاج إلى بحث وتحقيق.

1. Strothman, EI 1, vol. 3, p. 670.

2. Ibid, 51.

لم يرد في الكتب المعتبرة شيء حول سواد بشرة الإمام الجواد، في حين لو كان الأمر كذلك لما تجاوزته الكتب. وفي أهمّ المصادر التي تعرّضت إلى بيان صفة الإمام محمّد الجواد عليه السلام، لا نجد أدنى إشارة إلى سواد بشرته؛ وقد روى الشيخ الصدوق في كتابه عيون أخبار الرضا، عن أبي الصلت قوله: «إن الإمام الرضا عليه السلام بعد دسّ السمّ له من قبل المأمون،خَرَجَ عليه السلام مُغَطًّى الرَّأْسِ فَلَمْ أُكَلِّمْهُ حَتَّى دَخَلَ الدَّارَ ثُمَّ أَمَرَ أَنْ يُغْلَقَ الْبَابُ فَغُلِقَ ثُمَّ نَامَ عَلَى فِرَاشِهِ فَمَكَثْتُ وَاقِفًا فِي صَحْنِ الدَّارِ مَهْمُومًا مَحْزُونًا فَبَيْنَا أَنَا كَذَلِكَ إِذْ دَخَلَ عَلَيَّ شَابٌّ حَسَنُ الْوَجْهِ قَطَطُ الشَّعْرِ أَشْبَهُ النَّاسِ بِالرِّضَا عليه السلام فَبَادَرْتُ إِلَيْهِ فَقُلْتُ: لَهُ مِنْ أَيْنَ دَخَلْتَ وَالْبَابُ مُغْلَق؟ فَقَالَ «الَّذِي جَاءَ بِي مِنَ الْمَدِينَةِ فِي هَذَا الْوَقْتِ هُوَ الَّذِي أَدْخَلَنِي الدَّارَ وَالْبَابُ مُغْلَقٌ» فَقُلْتُ لَهُ: وَمَنْ أَنْتَ؟ فَقَالَ لِي «أَنَا حُجَّةُ اللَّهِ عَلَيْكَ يَا أَبَا الصَّلْتِ أَنَا مُحَمَّدُ بْنُ عَلِيٍّ»[1].

قد يمكن للمستشرقين أن يشككوا في صحّة هذه الرواية، وحضور الإمام الجواد عليه السلام في طوس بلحاظ ما ينطوي عليه من الإعجاز. بيد أن الإمام الجواد عليه السلام لو كان أسود البشرة حقًا، وكانت هذه الرواية مختلقة لأمكن لها أن تشير إلى سواد لون بشرة الإمام، كي تبدو أكثر واقعية. يضاف إلى ذلك أن ابن شهرآشوب في فصل الإمام الجواد عليه السلام[2]، وكذلك ابن طولون ـ من علماء أهل السنة ـ لم يذكرا شيئًا حول سواد بشرة الإمام الجواد عليه السلام في معرض بيان وصفهما له[3].

إن الرواية الوحيدة التي يمكن أن تكون منشأ لهذا القول، هي ما يرويه العياشي عن ابن أبي داود الذي أشار إلى الإمام الجواد عليه السلام بوصف الأسود في

١. الصدوق، عيون أخبار الرضا عليه السلام، ٢: ٢٤٣.

٢. ابن شهرآشوب المازندراني، مناقب آل أبي طالب، ٤: ٣٧٧ ـ ٣٩٧.

٣. ابن طولون، الأئمة الاثنى عشر، ١٠٣ ـ ١٠٤.

حادثة حدثت له مع الإمام في مجلس المعتصم العباسي حول مسألة فقهية، تغلب فيها الإمام على من كان حاضرًا من العلماء والفقهاء في ذلك المجلس ومن بينهم ابن أبي داود هذا. وإليك نصّ الرواية في هذا الشأن: عن زرقان صاحب ابن أبي داود وصديقه بشدة قال: «رجع ابن أبي داود ذات يوم من عند المعتصم وهو مغتم، فقلت له في ذلك، فقال: وددت اليوم أني قد متّ منذ عشرين سنة، قال: قلت له ولم ذاك؟ قال: لما كان من هذا الأسود أبا جعفر محمّد بن علي بن موسى اليوم بين يدي أمير المؤمنين المعتصم. قال: قلت له: وكيف كان ذلك؟ قال: إن سارقًا أقرّ على نفسه بالسرقة وسأل الخليفة تطهيره بإقامة الحدّ عليه، فجمع لذلك الفقهاء في مجلسه وقد أحضر محمّد بن علي عليه السلام، فسألنا عن القطع في أيّ موضع يجب أن يقطع؟ قال: فقلت من الكرسوع. قال: وما الحجة في ذلك؟ قال: قلت: لأن اليد هي الأصابع والكف إلى الكرسوع، لقول الله في التيمم: ﴿فَامْسَحُوا بِوُجُوهِكُمْ وَأَيْدِيكُمْ﴾(النساء: ٤٣؛ المائدة: ٦)، واتفق معي على ذلك قوم. وقال آخرون: بل يجب القطع من المرفق، قال: وما الدليل على ذلك؟ قالوا لأن الله لما قال: ﴿وَأَيْدِيَكُمْ إِلَى الْمَرَافِقِ﴾(الجن: ١٨) في الغسل دلّ ذلك على أن حدّ اليد هو المرفق. قال: فالتفت إلى محمّد بن علي عليه السلام فقال ما تقول في هذا يا أبا جعفر؟ فقال قد تكلم القوم فيه يا أمير المؤمنين، قال دعني ممّا تكلموا به، أيّ شيء عندك؟ قال إعفني عن هذا يا أمير المؤمنين. قال: أقسمت عليك بالله لما أخبرت بما عندك فيه. فقال: أما إذا أقسمت عليّ بالله إني أقول إنهم أخطأوا فيه السنة؛ فإن القطع يجب أن يكون من مفصل أصول الأصابع فيترك الكف. قال: وما الحجة في ذلك؟ قال: قول رسول الله صلى الله عليه وآله السجود على سبعة أعضاء الوجه واليدين والركبتين والرجلين، فإذا قطعت يده من الكرسوع أو المرفق لم يبق له

يد يسجد عليها، وقال الله تبارك وتعالى: ﴿وَأَنَّ الْمَسَاجِدَ لِلَّهِ﴾ ـ يعني به هذه الأعضاء السبعة التي يسجد عليها ـ ﴿فَلَا تَدْعُوا مَعَ اللَّهِ أَحَدًا﴾ (الجن: ١٨) وما كان لله لم يقطع. قال: فأعجب المعتصم ذلك وأمر بقطع يد السارق من مفصل الأصابع دون الكف. قال ابن أبي داود: قامت قيامتي وتمنيت أني لم أك حيًا»[١].

يتضح من العبارات الأخيرة في هذه الرواية أن ابن أبي داود كان يضمر بغضًا للإمام الجواد عليه السلام، لا سيّما وأنه قد شعر بأنه قد تعرّض للهوان في تلك الجلسة؛ إذ تبيّن أنه وهو في مقام القاضي لم يتمكن أن يبلغ من العلم ما كان يملكه ذلك الشاب في الأحكام الشرعية واستنباطها من القرآن الكريم. وقد بلغ شعوره بالضعة حدًا تمنى معه لو أنه كان قد مات قبل ذلك. وعليه يتضح أنه لا يمكن اعتبار كلامه في توصيف الإمام الجواد عليه السلام متطابقًا مع الواقع؛ حيث كانت هناك الكثير من الدوافع التي تحمله على وصف الإمام الجواد عليه السلام بعبارة تنطوي على الانتقاص، ومن بينها وصفه بالأسود.

إن الكثير من المصادر لدى الفريقين ـ من الشيعة وأهل السنة ـ قد وصفت الإمام محمّد الجواد عليه السلام بعبارة «أبيض معتدل»[٢]، وجاء وصفه في بعضها الآخر بأنه حنطي اللون[٣]. وقد جاء وصفه في كتاب عيون أخبار الرضا عن أبي الصلت بقوله: «دَخَلَ عَلَيَّ شَابٌّ حَسَنُ الْوَجْهِ قَطَطُ الشَّعْرِ أَشْبَهُ النَّاسِ بِالرِّضَا عليه السلام»[٤]. بالنظر إلى خلفية نقل هذه الرواية والشعور السلبي لابن أبي داود، مع وجود

١. العياشي، تفسير العياشي، ١: ٣٢٠.

٢. ابن الصباغ المالكي، الفصول المهمّة في معرفة الأئمة، ٢: ١٠٣٩؛ الشبلنجي، نور الأبصار في مناقب آل بيت النبي المختار، ٣٢٦.

٣. ابن شهرآشوب المازندراني، مناقب آل أبي طالب، ٤: ٣٨٢.

٤. الصدوق، عيون أخبار الرضا عليه السلام، ٢: ٢٤٢.

هذه الروايات التي تصف ظاهر الإمام محمّد الجواد عليه السلام، لا يبقى هناك مجال للشك في أن وصف الإمام بالأسود، ناشئ من عدم دقة المستشرقين في التمييز بين المصادر والغفلة عن سياق ومحتوى الروايات.

استشهاد أو وفاة الإمام الجواد عليه السلام

إن مسألة استشهاد أو وفاة الإمام الجواد عليه السلام من بين المسائل التي تعرّض المستشرقون لبحثها. وقد شكك موجان مومن في سبب وفاة الإمام الجواد أو أن يكون قد استشهد، وقال في ذلك:

«إن المعتصم قد استدعاه إلى بغداد، وقد توفي هناك بعد فترة من الزمن، وحيث يعتقد الشيعة أن جميع الأئمة قد استشهدوا، فقد قالوا بأن سبب وفاة الإمام الجواد عليه السلام هو دسّ السمّ إليه من قبل زوجته [أمّ الفضل] بتوجيه من المعتصم العباسي، وإن كان الشيخ المفيد ينفي هذه المسألة»[1].

وعلى الرغم من عدم إمكان تجاهل كلام بعض علماء الشيعة، من أمثال: الشيخ الكليني، والشيخ المفيد، والشيخ الطوسي، حول وفاة الإمام الجواد عليه السلام بالموت الطبيعي، ولكن كان على موجان مومن أن يلتفت إلى ما قاله قاطبة علماء الشيعة والمؤرخين القريبين من عصره، من أمثال المسعودي في إثبات الوصية، فقد قال المسعودي في هذا الشأن: «لما انصرف أبو جعفر عليه السلام إلى العراق، لم يزل المعتصم وجعفر بن المأمون يدبرون ويعملون في الحيلة في قتله؛ فقال جعفر لإخته أم الفضل ـ وكانت لأمّه وأبيه ـ في ذلك؛ لأنّه وقف على انحرافها عنه وغيرتها عليه لتفضيله أم أبي الحسن ابنه عليها مع شدّة محبتها له، ولأنّها لم ترزق منه ولدًا.

1. Momen, *An Introduction to Shi'i Islam*, 43.

فأجابت أخاها جعفرًا وجعلوا سمًّا في شيء من عنب رازقي ـ وكان يعجبه العنب الرازقي ـ فلما أكل منه ندمت وجعلت تبكي»[١].

وعلى الرغم من وجود الشك في نسبة كتاب إثبات الوصية لعلي بن الحسين المسعودي صاحب كتاب مروج الذهب ومعادن الجوهر[٢]، ولكن ليس هناك من شك في انتساب تأليف هذا الكتاب إلى القرن الرابع للهجرة. وذلك لأن النجاشي قد نسب هذا الكتاب إلى المسعودي[٣]، وإن الذين شككوا في نسبة هذا الكتاب إلى علي بن الحسين المسعودي، قد نسبوه إلى مسعودي آخر كان أستاذًا للشيخ النعماني[٤]، وفي هذه الحالة ايضًا لا يخرج تأليف هذا الكتاب عن القرن الرابع للهجرة.

ومن ناحية أخرى هناك قرائن، من قبيل صغر سن الإمام الجواد عليه السلام حيث كان في ريعان الشباب، واستدعائه قسرًا إلى بغداد بأمر من المعتصم، ثم وفاته المفاجئة في تلك المدينة، والتحاق أم الفضل بقصر المعتصم[٥] بعد استشهاد الإمام الجواد عليه السلام، يعزز فرضية استشهاد الإمام في هذه الحالة. وقد سبق أن ذكرنا شكوى أمّ الفضل من ابن الرضا عليه السلام عند أبيها بسبب اتخاذه جارية عليها. قال الشيخ المفيد في كتاب الإرشاد: «قد روى الناس أن أم الفضل كتبت إلى أبيها من المدينة تشكو أبا جعفر عليه السلام وتقول: إنه يتسرّى عليّ ويغيرني، فكتب إليها المأمون: يا بنية إنا لم نزوجك أبا جعفر ـ عليه السلام ـ لنحرم عليه حلالًا، فلا تعاودي لذكر ما

---

١. المسعودي، إثبات الوصية للإمام علي بن أبي طالب، ٢٢٧.

٢. شبيري زنجاني، پژوهشي درباره كتاب إثبات الوصية للإمام علي بن أبي طالب، ٤٤٤ و٤٤٧.

٣. النجاشي، فهرست أسماء مصنفي الشيعة، ٢٥٤.

٤. شبيري زنجاني، منبع شناسي اثبات الوصية ومسعودي صاحب مروج الذهب ومعادن الجوهر.

٥. ابن طولون، الأئمة الاثنى عشر، ١٠٣.

ذكرت بعدها»[١]. وعلى هذا الأساس يبدو أن هناك قرائن كافية لإثبات استشهاد الإمام الجواد عليه السلام.

وقد بحث ماثيو بيرس في كتابه «الاثنى عشر معصومًا» مسألة استشهاد أو وفاة الإمام الجواد عليه السلام، ونقل مختلف الآراء حول أصل دسّ السمّ إلى الإمام وطريقة تسميمه، وقد نقل القول باستشهاده عن كتاب الاعتقادات للشيخ الصدوق، وذكر أن هذا الرأي هو الذي يحظى بالقبول بين الشيعة في القرون المتأخرة. ومع ذلك فإن بعض علماء الشيعة ـ من أمثال الشيخ المفيد ـ قالوا باستشهاد خمسة من الأئمة فقط؛ ولكن بعد العصر الصفوي لا يتم ذكر هذا الرأي في آثار العلامة المجلسي، على الرغم من أن العلامة المجلسي كان مطلعًا على هذا الرأي قطعًا، ولكنه لا يرى حاجة إلى نقله[٢]. وقال من خلال الإشارة إلى سعيه من أجل توحيد السيرة وحياة أئمة الشيعة: «إن فهم أرباب السيَر حول طريقة الوفاة المحتملة لإمام إنما يمكن بيانه في إطار الاستشهاد؛ وعلى هذا الأساس فإن افتراض استشهاد الإمام الجواد يرتبط في الغالب بماهية الإمامة منه إلى قصة حياته الشخصية»[٣].

يسعى ماثيو بيرس إلى بيان رأي الشيعة بشأن استشهاد الإمام الجواد عليه السلام من زاوية الاتجاه العملاني السائد في جميع مواطن كتابه. ورأى أن السيرة المنقولة عن أئمة الشيعة عليهم السلام قد تمّ اختلاقها عبر الزمن، وهي ناشئة عن الذهنية السائدة والمرغوبة بين الناس. يرى بيرس أن توصيف أرباب السيَر للأئمة يتغير بما

١. المفيد، الإرشاد في معرفة حجج الله على العباد، ٢: ٢٨٨.

2. Pierce, *Twelve Infallible Men*, 50.

3. Ibid, 53.

يتناسب ورغبة المخاطبين في كل عصر. فهو يقول ـ على سبيل المثال ـ إن الشيخ المفيد في بداية القرن الخامس، يصف الإمام الباقر عليه السلام بأنه رجل قوي البنية[1]، وفي المقابل يذهب ابن شهرآشوب في القرن الهجري السادس إلى توصيف الإمام الباقر عليه السلام بقوله: كان رجلًا متوسط القامة، ناعم البشرة، قطط الشعر قليلًا، على خدّه خال، رفيع الخصر، حسن الصوت مائل الرأس. هذه هي الصورة الجميلة التي يقدّمها عنه[2]. يرى ماثيو بيرس أن هذا التوصيف يأتي في إطار توجيه الحبّ من الناس للأئمة الأطهار عليهم السلام روحًا وجسدًا، وهي تظهر العلاقة المتبادلة بين الأئمة عليهم السلام وبين الشيعة[3].

وقد بحث ماثيو بيرس في الفصل الثاني من كتابه مسألة وفاة أو استشهاد الأئمة الأطهار، ويسعى إلى إثبات كيفية تبلور الذهنية لدى المجتمعات الشيعية من قبل هذه الآثار. وقال بيرس إن العمل على جمع مواد سيرة أئمة الشيعة عليهم السلام كان يتمّ بتأثير من رؤية أرباب السيَر حول الأئمة الأطهار عليهم السلام ولا سيّما فيما يتعلق بمشروعيتهم وولايتهم[4]. ومن خلال بيانه للرأي السائد بشأن استشهاد جميع الأئمة باستثناء الإمام الثاني عشر عجل الله تعالى فرجه الشريف، أخذ يتساءل عن أسباب انتشار هذا الرأي؟ يذهب ماثيو بيرس إلى الاعتقاد بأن هذه المسألة قد نشأت من عملية التماهي بين الروايات الخاصة بوفيات الأئمة المعصومين عليهم السلام وجانب من مسار التعبير الأكبر لتقريب مصائرهم؛ حيث تحقق ذلك من خلال تبلور كتابة السيَر العامّة بشأن أئمة الشيعة عليهم السلام. وأضاف قائلًا: إن دافع المؤلفين في هذا النوع من

1. Ibid, 97.
2. Ibid.
3. Ibid, 98 - 99.
4. Ibid, 42.

الآثار الشيعية، يُشبه من الناحية النوعية ما نراه في أدب السيَر الذاتية في الثقافات الأخرى أيضًا[١].

يذهب ماثيو بيرس إلى القول بأن ابن بابويه يذكر الاعتقاد باستشهاد الأئمة الأحد عشر بوصفه بندًا من معتقدات الشيعة. كان من شأن هذا الرأي أن يفنّد رؤية بعض التيارات الشيعية ـ التي كانت تعتقد بأن الإمام موسى الكاظم عليه السلام أو الإمام الرضا عليه السلام لم يموتا وإنما قد حدثت لهما غيبة ـ ويؤكد على أصل استشهاد الأئمة الاثنى عشر عليهم السلام[٢]. ومن ناحية أخرى فإن كل حكاية عن استشهاد أحد الأئمة المعصومين عليهم السلام كان يمثل تحديًا للموقع الرسمي والمقتدر للحكام في الأذهن، وتأييدًا لتفسير الشيعة للخطة والمشروع الذي رسمه الله سبحانه وتعالى للبشرية[٣].

يرى ماثيو بيرس أن مسار عملية التوحيد والتماهي، كان له آلية أخرى أيضًا، وهي عبارة عن تصوير أعداء الأئمة الأطهار عليهم السلام في كل عصر وزمان، بمعنى أن لأعداء الإمام حضورًا في كل عصر، وكانت هذه الصورة قد تمّ بيانها في المصادر الأولى بشكل ضمني، وفي النصوص المتأخرة بشكل صريح[٤]. وعلى هذا الأساس فإن غرض أرباب السيَر كان يرمي إلى ما هو أبعد من مجرّد التأكيد على الحياة الفردية والتاريخية لكل واحد من الأئمة عليهم السلام؛ بل إنهم كانوا بصدد إثبات كيفية ارتباط الحياة الواقعية والتاريخية للأئمة الأطهار عليهم السلام مع مقولة الإمامة، وتمّ تقديمها بشكل متماه وعلى شاكلة واحدة؛ وبطبيعة الحال فإن أرباب السيَر

1. Ibid, 51.
2. Ibid, 52.
3. Ibid, 54.
4. Ibid, 53.

يقرّون بأن كل واحد من الأئمة الاثنى عشر كانت له حياته الفردية وسيرته الخاصة بعصره أيضًا[1].

في معرض دراسة آراء ماثيو بيرس لا بدّ من التذكير بهذه النقطة وهي أنه لا يمكن إنكار دور العقائد والشعائر الدنية للشيعة في البُعد الفردي والاجتماعي وآثار ذلك على الفرد والمجتمع بلا مراء. من ذلك أنه يمكن ـ عل سبيل المثال ـ بحث تأثير مراسم العزاء وإقامة المآتم من قبل الشيعة على مشاعرهم وإحساسهم بالتعلق بأئمتهم الأطهار عليهم السلام وتأثير ذلك في الحفاظ على شعائر الدين. إذ أن العناصر والمفاهيم والمناسك الدينية المختلفة يمكن أن تنطوي على مختلف المعطيات والنتائج الفردية والاجتماعية الدنيوية. وإن بحث ودراسة النتائج والمعطيات المنبثقة عن الأمور الدينية بهذا المعنى أمر مقبول. وأما بعض عبارات ماثيو بيرس فيبدو منها أن الشيعة قد اختلقوا مثل هذه العقائد والسيَر من أجل توفير معطيات ونتائج خاصة لأئمتهم، فهو كلام يحتاج إلى أن يدعمه بدليل، وهو قابل للنقد من وجهة نظرنا.

والحقيقة هي أن أرباب السيَر يختلفون فيما بينهم شأنهم في ذلك شأن المؤرخين، وهذا الاختلاف لا يقتصر على سيرة الأئمة الأطهار عليهم السلام فقط، أو أنه لا يرتبط باختلاف عصر حياة الأئمة عليهم السلام ومجتمعهم، فحتى أرباب السيَر في عصر واحد يختلفون في تقرير الوقائع أيضًا. إذا كان الاختلاف في توصيف الأئمة الأطهار عليهم السلام بين الشيخ المفيد وابن شهرآشوب، سببه مرغوبية ومطلوبية توصيفاتهم بين الناس، فيتعيّن على ماثيو بيرس أولًا أن يثبت أن رغبة الناس في عصر كل إمام تختلف عن عصر الإمام الآخر، وكان على ماثيو بيرس أن يُثبت

1. Ibid, 51.

رؤيته بالأدلة والبراهين أن الوجهة المطلوبة والمرغوبة للناس تختلف في هذين العصرين، ومن دون إثبات هذا الأمر يبقى مدّعاه من دون دليل. وثانيًا: يجب أن تتكرر هذه الأوصاف بشأن سائر الأئمة الآخرين أيضًا، بمعنى أن أرباب السيَر في مختلف الأزمنة عليهم أن يعملوا على وصف كل واحد من الأئمة بما يتناسب مع عصره وثقافة بيئته، في حين أننا لا نشاهد مثل هذا الاختلاف في آثار أرباب السّر.

وفي الحقيقة فإن غرض أرباب السيَر عبارة عن نقل الأحداث التاريخية، ولا شكّ في أن الروايات التاريخية مقرونة على الدوام بالقرائن والشواهد، وإن الجزم بها منخفض جدًا، ومن هنا فإن الكثير من الروايات بشأن الأمور الجزئية لا يمكن اعتبارها قطعية. وعلى هذا الأساس فإن الاختلاف في الروايات التاريخية أمر طبيعي، ولا يقتصر على بيان سيرة الأئمة. ولكن فيما يتعلق باستشهاد الإمام الجواد عليه السلام، يجب القول بأن هناك مصادر كثيرة من الكتب التاريخية ومصادر السيَر قد تحدّثت عن تعرّض الإمام الجواد عليه السلام للسمّ في مؤامرة دبّرها المعتصم العباسي[1].

قصة الحفاظ على حياة الإمام الجواد عليه السلام بقميص معجز

إن من بين منعطفات حياة الإمام الجواد عليه السلام التي حظيت باهتمام المستشرقين، عبارة عن شكوى أم الفضل زوجة الإمام عند أبيها المأمون، والحادثة التي وقعت بعد ذلك. وقد تحدّث دونالدسون عن اختلاف الإمام الجواد عليه السلام مع زوجته

١. المسعودي، إثبات الوصية للإمام علي بن أبي طالب، ١٩٢؛ المفيد، دلائل الإمامة، ٣٩٥؛ الإربلي، كشف الغمة في معرفة الأئمة، ٢: ٣٤٥؛ العياشي، تفسير العياشي، ١: ٣٢٠؛ فتال النيسابوري، روضة الواعظين وبصيرة المتعظين، ١: ٢٤٣؛ ابن الصباغ المالكي، الفصول المهمة في معرفة الأئمة، ٢: ١٠٥٨؛ ابن شهرآشوب المازندراني، مناقب آل أبي طالب، ٤: ٤١١.

أم الفضل، وشكواها إلى أبيها بسبب تسرّي الإمام بالجواري، وأحال ذلك إلى كتاب الاثنى عشرية[١] لمؤلفه القس كانون سيل[٢]. وقال في ذلك: «وكانت نتيجة واحدة من هذه الشكاوى، غضب المأمون وهو في حالة السكر. وحدث ذات ليلة أن دخل على الإمام الجواد عليه السلام فوجده نائمًا في سريره، فأخذ يطعنه بالسيف عدّة طعنات؛ وفي الصباح ندم على فعلته، وأرسل من يتفقّد الإمام عليه السلام. فقال ذلك الشخص إن الإمام نجا من ضربات السيف بسبب قميص خاص كان يرتديه. فأرسل المأمون بعض الهدايا والتحف، ومن بينها ذلك السيف الذي طعن به الإمام، وعاتب ابنته وقال لها: إن شكوته إليّ مرةّ أخرى، فلن تريني بعدها»[٣].

وقد جاء تفصيل هذه الرواية في كتاب الخرائج والجرائح للراوندي[٤]، وكشف الغمة للإربلي[٥]، ومن بعدهما في كتاب بحار الأنوار للعلامة المجلسي[٦]. بيد أن الإربلي قد شكك في صحّة هذه الرواية، وقال: «وهذه القصّة عندي فيها نظر، وأظنها موضوعة؛ فإن أبا جعفر عليه السلام إنما كان يتزوّج ويتسرّى حيث كان بالمدينة، ولم يكن المأمون بالمدينة فتشكو إليه ابنته. فإن قلت: إنه [أي المأمون] جاء حاجًا. قلت: لم يكن ليشرب في تلك الحال، وأبو جعفر عليه السلام مات ببغداد وزوجته معه، فأخته أين رأتها بعد موته وكيف اجتمعتا وتلك بالمدينة وهذه ببغداد، وتلك

١. دونالدسون، مذهب شيعة: تاريخ اسلام در ايران وعراق (مجلدان)، ٢: ٢٤.

2. Rev Canon Sell.

٣. م.ن.، ٢٦.

٤. القطب الراوندي، الخرائج والجرائح، ١: ٣٧٣.

٥. الإربلي، كشف الغمة في معرفة الأئمة، ٢: ٣٦٦.

٦. المجلسي، بحار الأنوار، ٥٠: ٧٠.

الامرأة التي من ولد عمار بن ياسر ـ رضي الله عنه ـ في المدينة تزوجها؛ فكيف رأتها أم الفضل فقامت من فورها وشكت إلى أبيها؟! كل هذا يجب أن ينظر فيه والله أعلم»[١].

إلا أن العلامة المجلسي في بحار الأنوار لم ير تشكيك الإربلي واردًا، وقال في جوابه: «أقول كل ما ذكره من المقدمات التي بنى عليها رد الخبر في محل المنع، ولا يمكن رد الخبر المشهور المتكرر في جميع الكتب بمحض هذا الاستبعاد. ثم اعلم أنه قد مضى بعض معجزاته في باب شهادة أبيه عليه السلام»[٢].

وعلى كل حال لا يوجد كلام عن القميص في هذه الرواية. ولكن هناك رواية أخرى في بعض الكتب، ومن بينها كتاب مهج الدعوات للسيد ابن طاووس جاء فيها أن المأمون أمر خادمه ياسر أن يذهب ويتفقد وضع الإمام الجواد عليه السلام بعد ضربه بالسيف، فقال له المأمون: «ويلك يا ياسر فانظر ما الخبر والقصة عنه عليه السلام، وعجّل عليّ بالخبر، فإن نفسي تكاد أن تخرج الساعة. فخرج ياسر وأنا ألطم حرّ وجهي، فما كان بأسرع من أن رجع ياسر، فقال: البشرى يا أمير المؤمنين. قال: لك البشرى فما عندك؟ قال ياسر: دخلت عليه فإذا هو جالس وعليه قميص ودوّاج وهو يستاك فسلمت عليه وقلت: يا ابن رسول الله أحبّ أن تهب لي قميصك هذا أصلي فيه وأتبرك به، وإنما أردت أن أنظر إليه وإلى جسده هل به أثر السيف، فو الله كأنه العاج الذي مسه صفرة ما به أثر»[٣]. وإن هذه الرواية تتمّة لتلك الرواية التي يتعلم فيها المأمون حرزًا من الإمام الجواد، ويكتبه على جلد ظبي كان معه في حرب الروم: «وروي أنه لما سمع المأمون من أبي جعفر في أمر

١. الإربلي، كشف الغمة في معرفة الأئمة، ٢: ٣٦٦.

٢. المجلسي، بحار الأنوار، ٥٠: ٧٢.

٣. ابن طاووس، مهج الدعوات ومنهج العبادات، ٣٧.

هذا الحرز هذه الصفات كلها غزا أهل الروم فنصره الله تعالى عليهم»[١].

وكما نرى في هذه الرواية، صحيح أن ياسر طلب من الإمام الجواد عليه السلام أن يعيره قميصه، إلا أن الرواية قد صرّحت بأن الغاية من ذلك كانت هي رؤية جسد الإمام، ولم ترد فيها أيّ إشارة إلى أن ذلك القميص كان هو السبب في الحفاظ على حياة الإمام محمّد الجواد عليه السلام. ومن هنا لم نعلم من أين جاء دونالدسون بالخصائص الإعجازية لذلك القميص.

وكما نلاحظ فإن أعمال الغربيين حول حياة الإمام الجواد عليه السلام شحيحة جدًا، ولم يتمّ التدقيق إلا في جوانب من حياته، وقد ذكرنا سبب ذلك في بداية هذه المقالة. بيد أن الذي تمّت الغفلة عنه تمامًا هو دراسة الروايات المأثورة عن الإمام الجواد عليه السلام. فإذا ما استثنينا مقالة إدموند هيس، لم تعمل أيّ واحدة من تحقيقات المستشرقين على تحليل ودراسة الأحاديث التربوية المأثورة عن الإمام الجواد عليه السلام. ولم يرد ذكر في هذه الدراسات لمناظرات الإمام الجواد عليه السلام مع المسلمين وغير المسلمين. كما لم يتمّ التدقيق في ارتباطه بوكلائه والممثلين عنه في المُدُن الأخرى، ولم يتمّ الالتفات إلى آرائه وانتقاداته بالنسبة إلى سائر الفرَق الشيعية الأخرى، ومن بينها الواقفية والغلاة.

---

١. م.ن.، ٣٩.

المصادر

١. ابن شهرآشوب المازندراني، محمّد بن علي، مناقب آل أبي طالب، قم، انتشارات علامه، ١٣٧٩ش.

٢. ابن الصباغ المالكي، علي بن محمّد (م: ٨٥٥هـ)، الفصول المهمّة في معرفة الأئمة، تحقيق: سامي الغريري، قم، دار الحديث، ١٤٢٢ هـ.

١. ابن طولون، شمس الدين محمّد، الأئمة الاثنى عشر، بيروت، دار صادر، ١٩٥٨م.

٢. ابن واضح اليعقوبي، أحمد بن أبي يعقوب، تاريخ اليعقوبي، بيروت، منشورات مؤسسة الأعلمي للمطبوعات، ١٩٩٣ م/ ١٤١٣هـ.

٣. الإربلي، علي بن عيسى (م: ٦٩٣ هـ)، كشف الغمة في معرفة الأئمة، تبريز، انتشارات بني هاشمي، ١٣٨١ش.

٤. الأشعري القمي، المقالات والفرَق، طهران، مركز انتشارات علمي فرهنگي، ١٣٦٠ش.

٥. أمير معزي، محمّد علي، راهنماي رباني در تشيّع نخستين، طهران، نشر نامك، ١٣٩٦ش.

٦. الخرازي، السيّد محسن، بداية المعارف الإلهية، قم، مؤسسة النشر الإسلامي، ١٤٢٣هـ.

٧. دونالدسون، دوايت، مذهب شيعة، تاريخ اسلام در ايران وعراق (مجلدان)، الترجمة: عباس أحمدوند ومحمّد قزويني نظم آبادي، قم، انتشارات پژوهشگاه علوم وفرهنگ اسلامي، ١٣٩٥ش.

٨. السيّد ابن طاووس، علي بن موسى (م: ٦٦٤ هـ)، مهج الدعوات ومنهج العبادات، تحقيق: حسين الأعلمي، بيروت، مؤسسة الأعلمي، ١٤١٤ هـ.

٩. الشبلنجي، مؤمن بن حسين (م: ١٢٩٨ هـ)، نور الأبصار في مناقب آل بيت النبي المختار، بيروت، دار الكتب العلمية، ١٣٩٨هـ.

١٠. شبيري زنجاني، السيّد محمّد جواد، «پژوهشي درباره كتاب إثبات الوصية»، مجلة كتاب شيعة، العدد: ٢١ ـ ٢٢، ربيع وصيف عام ١٣٩٩ش.

١١. ـــــــــــــ، «منبع شناسي اثبات الوصية ومسعودي صاحب مروج الذهب ومعادن الجوهر»، مجلة انتظار (انتظار موعود)، العدد: ٤، صيف عام ١٣٨١ش.
١٢. الصدوق، محمّد بن علي (ابن بابويه) (م: ٣٨١ هـ)، الخصال، تحقيق: علي أكبر غفاري، قم، دار النشر الإسلامي، ١٤٠٣ هـ.
١٣. ـــــــــــــ، عيون أخبار الرضا عليه السلام، تحقيق: حسين الأعلمي، بيروت، مؤسسة الأعلمي، ١٤٠٤ هـ.
١٤. الطوسي، محمّد بن الحسن (م: ٤٦٠ هـ)، تهذيب الأحكام في شرح المقنعة للشيخ المفيد، تحقيق: السيّد حسن الموسوي الخرسان، طهران، دار الكتب الإسلامية، ١٣٦٤ش.
١٥. ـــــــــــــ، اختيار معرفة الرجال، تحقيق: السيّد مهدي رجائي، قم، مؤسسة آل البيت لإحياء التراث، ١٤٠٤ هـ.
١٦. العياشي السمرقندي، محمّد بن مسعود (م: ٣٢٠ هـ)، تفسير العياشي (كتاب التفسير)، تحقيق: السيّد هاشم رسولي محلاتي، طهران، مطبعة علمية، ١٣٨٠هـ.
١٧. فتال النيسابوري، محمّد بن الحسن (م: ٥٠٨ هـ)، روضة الواعظين، قم، انتشارات أنصاريان، ١٣٨٤ش.
١٨. الفخر الرازي، محمّد بن عمر، التفسير الكبير (مفاتيح الغيب)، بيروت، دار إحياء التراث العربي، ١٤٢٠ هـ.
١٩. الفيض الكاشاني، محسن (م: ١٠٩١ هـ)، الوافي، تحقيق: ضياء الدين الحسيني، إصفهان، مكتبة الإمام أمير المؤمنين علي عليه السلام، ١٤٠٦ هـ.
٢٠. القطب الراوندي، سعد بن هبة الله (م: ٥٧٣ هـ)، الخرائج والجرائح، قم، مؤسسة الإمام المهدي، ١٤٠٩ هـ.
٢١. الكليني، محمّد بن يعقوب، الكافي، طهران، دارالكتب الإسلامية، ١٣٦٣ش.
٢٢. المجلسي، محمّد باقر (م: ١١١١ هـ)، بحار الأنوار الجامعة لدرر أخبار الأئمة الأطهار، تحقيق: محمّد باقر البهبودي، بيروت، دار إحياء التراث العربي، ١٤٠٣هـ.

٢٣. ـــــــــــــ، ملاذ الأخيار في فهم تهذيب الأخبار، قم، مكتبة آية الله المرعشي النجفي، ١٤٠٦هـ.
٢٤. المسعودي، علي بن الحسين، إثبات الوصية للإمام علي بن أبي طالب، قم، انتشارات أنصاريان، ١٣٨٤ش/ ١٤١٧هـ.
٢٥. المفيد، محمّد بن محمّد بن النعمان العكبري (م: ٤١٣ هـ)، الإرشاد في معرفة حجج الله على العباد، قم، مؤتمر الشيخ المفيد، ١٤١٣ هـ.
٢٦. ـــــــــــــ، الفصول المختارة من العيون والمجالس، قم، المؤتمر العالمي للشيخ المفيد، ١٤١٣هـ.
٢٧. ـــــــــــــ، دلائل الإمامة، قم، بعثت، ١٤١٣هـ.
٢٨. ناجي، عبد الجبار، التشيع والاستشراق عرض نقدي مقارن لدراسات المستشرقين عن العقيدة الشيعية وأئمتها، بغداد، المركز الأكاديمي للأبحاث، ٢٠١١م.
٢٩. النجاشي، أحمد بن علي، فهرست أسماء مصنفي الشيعة المعروف برجال النجاشي، قم، جامعة المدرسين، ١٣٦٥ش.
٣٠. هالم، هاينس، تشيّع، الترجمة: محمّد تقي أكبري، قم، نشر أديان، ١٣٨٤ هـ.

31. Canon, Rev. Sell. *Ithna Ashariyya or The Twelve Shi`ah Imams*. Colombo. Christian Literature Society For India, 1923.
32. Daou, Tamima Bayhom. *The Imãmi Shi`i Conception of the Knowledge of the Imãm and the Sourcesof Religious Doctrine*. London. SOAS, 1996.
33. Hayes, Edmund. "Between Implementation and Legislation: The Shiʿi Imam Muḥammad al-Jawād's Khums Demand Letter". *Islamic Law and Society* 28 (2021).
34. Houtsma, M. and Th. T. W. Arnold. R. Basset and R. Hartmann. *Encyclopedia of Islam* (First Edition). 4 Vols. Leiden. Brill, 1913 - 1938.
35. Madelung, Wilfred. "Muḥammad b. ʿAlī al-Riḍā." in *EI2* VII. 1993: pp. 396 - 397.
36. Momen, Moojan. *An Introduction to Shi`i Islam: The History and Doctrines of Twelver Shi`ism*. New Haven, CT: Yale University Press, 1985.

37. Pierce, Matthew. *Twelve Infallible Men: The Imams and the Making of Shiʿism*, Harvard University Press, 2016.
38. Wardrop, Shona. "The Lives of the Imāms Muḥammad al- Jawād and ʿAlī al-Hādī and the Development of the Shīʿite Organization". *PhD diss*. University of Edinburgh, 1988.